الفصل الأول

الرسالة وعناصر نجاحها

obeikandl.com

ما هى الرسالة :

لعل أجمل تعـريف للرسالة هو ما ذكره Arthur Cole من أنها « تقرير واف : يقدمه باحث عن عمل تعهده وأتمه ؛ على أن يشمل التقرير كل مراحل الموضوع : منذ كان فكرة حتى صار نتائج مدونة ؛ مرتبة ؛ مؤيدة بالحجج والأسانيد».

وتتوقف قيمة هذا التقرير (الرسالة) على عوامل متعددة ، ولكن أهم هذه العوامل هو أن يكون هدف الطالب البحثَ عن الحقيقة ؛ فاذا ظفر بها أعلنها اتفقت مع ميوله أو لم تتفق.

ومن هنـا يبدو بوضوح الفرق بين المنـاظرات وبين الرسائل ؛ فاذا وضعنا لمناظرة تاريخية عنوانا مثل : « الحكم الشورى فى الاسلام » فان الجانب الذى يؤيد سيطالعنـا بقوله تعـالى (وشاورهم فى الأمر) وسيورد صـورا من استشارة الرسول (ص) لأصـحابه واستشارة الخلفـاء للصحابة فيما أشـكل من أمور ، وأما الجانب المعـارض فسيبحث عن تأويل لهذه المواقف ، وسيعرض لموقف أبى بكر حين خالف الصحابة الذين أشاروا عليه بعدم محاربة مانعى الزكاة وقال قولته المشهورة « والله لو منعونى عِقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » وربما رد الفريق المؤيد بأن ما ورد فيه نص لا استشارة فيه . وربما أجاب الفريق المعارض بتأويل ذلك النص وتوجيهه توجيها خاصا ،

وهكذا كل فريق من المتناظرين يبدأ دراسته من وجهة نظر معينة ويجمع من المادة ما يلائم موقفه ، ويتلمس التأويل لما قد يدعم رأى الفريق الآخر .

أما اذا كان هذا الموضوع موضوع رسالة ، فان الطالب يبدأ دراسته للبحث عن جوهر الحقيقة دون أن يكون له رأى فى بادىء الأمر، فيقرأ ويجمع المادة، ويتفهمها . ويقارن بعضها بالبعض الآخر لتوصله القراءة والدراسة الى الحقيقة، دون أن تلعب به الأهواء أو توجهه الميول ، فهو اذا بدأ دراسته لا يبرهن على شىء بل ليكشف شيئا ، وهو اذ لا يتجاهل وسيلة تساعده على بلوغ هذا الهدف ، وهو مستعد أن يغير رأيا يكون قد كوّنه اذا جدّ ما يستدعى هذا التغيير مهما استلزم ذلك التغيير من عناء ونصب . تلك هى الروح العلمية ، تهدف للحقيقة ولا يقودها أو يؤثر فيها هوًى أو رغبة .

ومن هذا يتضح أنه لا يجوز أن يختار الطالب لدراسته موضوعا وهو ينوى أن يثبته ، أو ينوى أن يرده ، بل يجب أن يختار الموضوع الذى يمكنه أن يثبته أو يرده على حسب ما سوف يحصل عليه من مادة ، فالمادة تقود الطالب الى النتيجة التى يجب ألا يكون لها وجود فى ذهن الباحث عند بدء البحث . فاذا اختار الطالب لدراسته موضوعا وهو يأخذ منه جانبا معينا فهو مناظر وليس بباحث .

دعائم الرسالة الناجحة :

للرسالة الناجحة دعائم أهمها :

أولا — القراءة الواسعة ؛ فطالب الماجستير أو الدكتوراه يجب ألا يدّخر وسعا فى القراءة ، ويجب أن يلم بكل ما كتب عن موضوعه من أبحاث هامة . والطالب كما سبق يحدد نتائجه بناء على قراءته . ولا شك أن موقفه سيكون حرجا لو واجهه الممتحنون بمعلومات فاتته ومن شأنها أن تحدث تغييرا فيما وصل اليه من نتائج .

ثانيا — الدقة التامة فى فهم آراء الغير . وفى نقل عباراته؛ فكثيرا ما يقع الطالب فى أخطاء جسيمة بسبب سوء الفهم أو الخطأ فى النقل .

ثالثا — ألا يأخذ آراء الغير على أنها حقيقة مسلم بها ؛ فكثير من الآراء بنى على أساس غير سليم : فليدرس الطالب آراء غيره ودعائمها فيقر منها ما يتضح له صحته ، ويرد ما لم يكن قوى الدعائم[1] .

رابعا — أن تتمخض الرسالة عن ابتكار واضافة جديد الى ما هو معروف من العلوم ؛ فالباحث يبدأ من حيث انتهى غيره من الباحثين ؛ ليسير بالعلم خطوة أخرى ، وليسهم فى

(١) سنفصل القول فى هذا الموضوع فيما يأتى تحت عنوان « شخصية الباحث » ص ٩

النهضات العلميـــة بنصيب ، وليس الابتـــكار المطلوب فى الرسائل هو كشف الجديد فحسب ؛ بل هناك أشياء أخرى غير الكشف يشملها لفظ الابتكار ، وذلك مثل ترتيب المادة المعروفة ترتيبا جديدا مفيدا ، أو الاهتداء الى أسباب جديدة لحقائق قديمة ؛ أو تكوين موضوع منظم من مادة متناثرة أو نحو ذلك .

خامسا — اذا وصل الطالب الى مرحلة كتابة الرســالة فليبذل جهده ليكون قوى التـــأثير فى قارئه ، وليورد له من الادلة ما يجعله يشاركه فيما يذهب اليه ، وليدرك الطالب أن مهمته أولا أن يجذب ذهن قارئه بما يقدم فى الرسالة من مادة طريفة جديدة ؛ فاذا تم له اجتذابه فليدرك اذ ذاك أن مهمته أن يحافظ على انتباه القارىء بأن يقدم له مادة واضحة متسلسلة مركزة ؛ اذ أن الجاذبيـــة ستضعف اذا صادف القـــارىء استطرادا أو ابهاما مما قد يشغل ذهنه عن تتبع الفكرة الأساسية التى يعالجها الطالب .

وليعرف الطالب أن القائد الذى يهدف الى اقتحام حصن ما ، عليه أن يعدّ جنـــده اعدادا تاما ؛ ثم عليه أن يبرع فى ادارة المعركة ؛ وأن يواصل ضغطه حتى يصل الى هدفه

وكذلك الطالب اذا كوّن باطلاعه رأيا فليحشد له من المادة ما يكفى لاثباته ، وليبرع فى عرض هذه المادة بأسلوب جميل وبدقة واتقان ووضوح ؛ وبدون استطراد أو ابهام ؛ فليست

مهمة الطالب أن يكشف جديدا فقط ، ولكن أن يصوغ ما كشفه فى قالب جميل ، فيه وضوح واغراء وقوة وتأثير . فهذا لا ريب جزء متمم لعمله .

بين الماجستير والدكتوراه :

الهدف الأول لدرجة الماجستير هو أن يحصل الطالب على تجارب فى البحث تحت اشراف أحد الأساتذة ؛ ليمكنه ذلك من مواصلة البحث للتحضير للدكتوراه التى يفرض فيها أن تمنح تجارب أكمل وأوسع ، وأن تكون مساهمة حقة فى النهضة العلمية ، وأن تضيف جديدا للثقافة الرفيعة .

وتعتبر الماجستير امتحانا يعطى فكرة عن مواهب الطالب ، وصلاحيته أو عدمها للتحضير للدكتوراه .

والماجستير تساعد الطالب الكفء ليحس متعة البحث ولذة الدراسة ، فيدفعه ذلك الى مداومة البحث والدراسة للحصول على الدكتوراه ، حتى اذا حصل عليها كان الشغف قد كمل عنده وخالط دمه فلا يفتأ باحثا طوال حياته ، باحثا عن العلم للعلم ، وذلك هو الهدف الأسمى .

واذا كان لابد للماجستير أن تضيف جديدا للثقافة العالية ، فالجديد الذى تضيفه رسالة الدكتوراه يجب أن يكون أوضح وأقوى ؛ فهى بين ابراز فكرة وشرحها وتنظيمها ، أو التعمق برأى والتطور به وتفريعه ، ويكون

كل ذلك موضوعا فى مستوى عال يتناسب مع الدرجة العالية التى سيمنحها الطالب .

وتعتمد رسالة الدكتوراه على مراجع أوسع . وتحتاج الى براعة فى التحليل وتنظيم المادة . ويجب أن تعطى فكرة عن أن مقدمها يستطيع الاستقلال بعدها فى البحث ، فهو بجانب الشغف الذى تربى عنده تربت عنده المقدرة على أن ينتج انتاجا علميا صحيحا دون أن يحتاج الى من يشرف عليه ويوجهه .

شخصية الباحث :

يجدر بنا أن نقول بصراحة أن البحث موهبة فنية تمنح لبعض الناس ولا تمنح لآخرين ، وليس الاطلاع ولا جمع المادة وترتيبها بالعناصر الكافية لانتاج رسالة ممتازة ، فلابد من توافر المقدرة على البحث عند الطالب ، فجمع المادة وترتيبها شىء ، وتفسيرها وابراز أهميتها شىء آخر ، بل هذا هو الصعب والمهم فى انتاج الرسائل ، ويجب أن يعرف الطالب أن هناك شيئاً لا يمكن التجاوز عنه أو تجاهله ، هو أن تكون له مقدرة يستطيع أن يستقل بها فى فهم الحقائق وفى تفسيرها ، فمما لاشك فيه أن الحقائق شىء لا يختلف وأن فهمها وتفسيرها شىء قابل للاختلاف ، فاذا لم يكن الطالب ممنوحا هذه المقدرة فهو دون المستوى اللازم للمنهاج العلمى المطلوب

ولايضاح ذلك نذكر أن المراجع الأساسية للدين الاسلامى وقوانينه واحدة ، ولكن شخصية المجتهدين من العلماء أدت الى اختلافهم فى فهم النصوص القرآنية والأحاديث . فظهرت المذاهب المختلفة نتيجة لاختلاف الفهم .

ومثال آخر : ارتفعت أسعار النقد المصرى فى الأسواق العالمية عقب تغيير وزارى بمصر . فأذاعت وزارة المالية بلاغا رسميا ذكرت فيه « أن الثقة عادت الى النقد المصرى عقب قيام الحكومة الجديدة مما أدى الى ارتفاع أسعار النقد المصرى فى الخارج » . ولكن أحد النقاد الاقتصاديين علل هذه الحقيقة وهى ارتفاع الأسعار بأسباب أخرى اقتصادية ذكرها ، وأوضح أن لا علاقة بين ارتفاع الأسعار وبين تغيير الحكومة ، وقد أيدت الحوادث وجهة نظر هذا الناقد ، اذ عادت أسعار النقد الى الانخفاض بعد مدة وجيزة ، وكانت الحكومة نفسها لا تزال فى كراسى الحكم . ومن هذا يتضح أن الحقيقة شىء وأن فهمها وتفسيرها شىء آخر .

وعلى الباحث أيضا أن يفتح عينيه وقلبه لما يقرأ ، ولا يسلم تسليما مطلقا بالآراء التى سُبِق بها والتى قررها أسلافه ، بل لابد أن يفكر فيها ويمعن النظر فى محتوياتها ، والأمثلة كثيرة على ما خالف فيه اللاحقون السابقين ومن ذلك مثلا أن أكثر الباحثين يتحدثون عن نظام تولية العهد لأكثر من واحد فى الدولتين الأموية والعباسية على أنه كان

من دواعى الاضطراب والضعف فى هاتين الدولتين . ومن أهم العوامل التى أدت الى سقوطهما .

يقول الدكتور حسن ابراهيم فى كتابه تاريخ الاسلام السياسى [1] تحت عنوان « أسباب سقوط الدولة الأموية » ما يلى :

> كان من بين الأسباب التى أثرت فى اضمحلال البيت الأموى وذهاب ريحه ؛ ولاية العهد لاثنين يلى أحدهما الآخر ... ولا غرو فانه لم يكد يتم الأمر لأولهما حتى يعمل على اقصاء الثانى من ولاية العهد واحلال أحد بنيه مكانه ....
>
> واول من سن هذه السنة مروان بن الحكم فقد ولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ؛ ولم يأبه بما كان فى مؤتمر الجابية وما اجمعوا عليه حينذاك من البيعة بعده لخالد بن يزيد وعمرو بن سعيد ، وكان من اثر ذلك خروج عمرو ابن سعيد بن العاص على عبد الملك وقضاء الأخير عليه .

ويقول الخضرى [2] وهو يتحدث عن الأسباب التى أدت الى ضعف الدولة العباسية وتلاشيها :

> وحاول العباسيون التخلص مما تقضى به العهود اذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود

(١) ج ١ ص ٥٢٣

(٢) تاريخ الأمم الاسلامية ج ٢ صفحات ٦٨٣ ـ ٦٨٤ .

التى تعقد لتولى الخلافة فانهم جعلوها من الاشياء التى يسهل حلها وان كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق . فعل ذلك المنصور مع عيسى ابن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمدا المهدى . وهذا التقديم وان كان قد تم بطلب عيسى ورضاه الا أنا نعرف كيف توصل المنصور الى الحصول على هذا الرضا من الاساءات المتكررة لعيسى ومن التهديد المتواصل . . . . . وفعل المهدى مثل ذلك فحذف عيسى بن موسى وولى ولديه الهادى والرشيد .

فهل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصدر خطر على الدولة الاسلامية ؟ وهل كانت من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين ؟

الجواب عندى بالنفى ؛ لقد قرأت رأى هذين المؤرخين الفاضلين ولم أجد أحدا من القدامى أو المحدثين يخالفهما فى تقرير هذه النتيجة ، غير أن قراءتى لكل هؤلاء كانت بروح مستقلة ، وكنت أقرأ الحوادث نفسها لأضع أنا نتيجة تتفق أو تختلف مع الآخرين ، فتبين لى من استعراض التاريخ الاسلامى أن هذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولى العهد كان يتم بدون اضطراب يذكر ، ولم يكن يستلزم هذا التغيير أكثر من اضطهاد شخص ولى العهد الذى كان يودى بنفسه أو يطأطىء للعاصفة ويستجيب للقوة ، وأنه هو — لا الدولة — الذى كان يقاسى العناء من هذا الاجراء .

والوقفة الوحيدة القوية التى وقفها ولى عهد . هى تلك التى أشعل أوارها المأمون فى وجه الأمين ، وحتى هذه مرت وكان ضحيتها الأمين ، أما الدولة العباسية والدولة الاسلامية فقد أفادتا من التعجيل بنقل السلطة من يد الأمين العابث الى يد المأمون العظيم .

هذا ولا نزاع أن المأمون استطاع أن يقف هذه الوقفة لأن الرشيد ولاه خراسان بجميع أعمالها وأعد له جيشا كبيرا ، ولم يجعل للأمين عليه سلطة فيما وليه من بلاد ، وذلك وحده هو الذى ساعد المأمون أن يقف فى وجه الأمين ولو كان المأمون وليا للعهد ولا نفوذ له لطوح برأسه اذا تمرد كما فُعِل بعمرو بن سعيد ، أو لخضع لرغبة الخليفة كما خضع عيسى بن موسى للمنصور وللمهدى ، وكما كان الرشيد على وشك أن يخضع للهادى لولا وفاة الأخير .

فليس فى التاريخ ما يحدثنا عن أن تولية العهد لأكثر من واحد أسقطت الدولة أو كانت سببا هاما فى اضطرابها ، وأما الحرب بين الأمين والمأمون فانها وان كانت حقيقة واقعة الا أن لى فهما خاصا فيها ، وهو أنها وقعت بسبب تولية المأمون خراسان وما حولها .

وقد تدهورت الدولة الفاطمية فى مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ، أى منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن فى نظام هذه الدولة جعل ولاية العهد لأكثر من واحد .

هذا المثال وغيره يدعو الطالب أن يفحص بعمق عن كل ما يقرأ وألا يسلم بما قرره غيره من نتائج ؛ بل يدرس هو الأحداث والأسباب مع مقارنة النصوص بعضها ببعض ؛ لتبرز شخصيته فى كل مراحل البحث ، شخصية ايجابية مؤثرة ، ولكن حذار أن يبالغ الطالب فى ذلك فيجادل بالحق وبالباطل ؛ فهذا مايجب أن يبعد عنه طالب الأبحاث كل البعد .

وأخيرا فالرسالة فرصة ليثبت الطالب سعة اطلاعه وعمق تفكيره وقوته فى النقد والتبصر بما يصادفه من أمور .

obeikandl.com